دَرْكُ الهُدى
في
اتباع الفتى

حقوق الطبع لكل مسلم صادق راغب بالتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ
دفاعاً عن العقيدة والتوحيد والمنهج الصحيح
فجزى الله خيراً كل من يطبعه ويُوزعه
والدال على الخير كفاعله

الطبعة الأولى
١٤٣٣ – ٢٠١٢م

النَّاشِر :

النور للإعلام الإسلامي
Al Nur Islamic Information
Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C. Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur1@hotmail.com

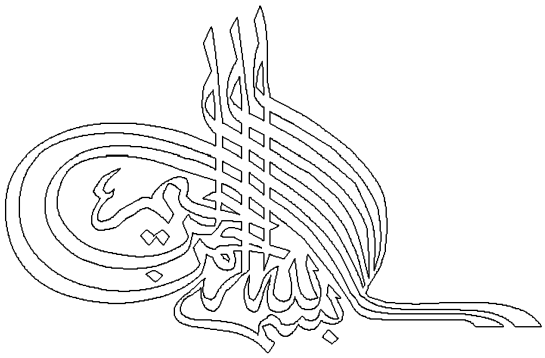

قال الإمام مسلم بن الحجاج في «صحيحه»[1] في كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغُلام، قال: حدَّثنا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ . حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ. فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَماً يُعَلِّمُهُ. فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ، رَاهِبٌ. فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ. فَأَعْجَبَهُ. فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ. فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ. فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ. فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ. فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ. حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا . وَمَضَى النَّاسُ. فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ، الْيَوْمَ، أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى. وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى. فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلُّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ. فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ. فَقَالَ: مَا هَهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً. إِنَّمَا

[1] «صحيح مسلم»: ١٨/١٠٤/ح٧٤٦٠ .

يَشْفِي اللهُ. فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللهِ. فَشَفَاهُ اللهُ. فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ. فَجِيءَ بِالْغُلَامِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً. إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ. فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ. فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ. فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا. فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُرةٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ. فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ.

وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي. ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ. ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ ارْمِنِي. فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ. ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ. فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ. فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ، وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ. وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا. فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا. فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي. فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ».

ورواه أحمد في «مُسنده»[1] في «مُسند صُهيب» قال حدثنا عفان حدثنا حماد به.. وألفاظه وألفاظ هدَّاب واحدة إلاَّ ألفاظ يسيرة.

وأخرجه النسائي في «الكبرى»[2] عن أحمد بن سلمان عن عثمان عن حماد، ومن طريق حماد بن زيد كِلاهما عن ثابت به. قال ابن كثير: واختصر أوله.

ورواه الترمذي في «سُننه»[3] في تفسير سورة «البروج» قال: حدثنا مَحمُودُ بنُ غَيْلاَنَ وعَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ ـ المَعْنَى وَاحِدٌ ـ قالاَ: أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَن مَعْمَرٍ عَن

---

1 «مُسند أحمد»: ٧/٢٧/ح٢٣٥٤٠.

2 «سنن النسائي الكبرى»: ٦/٥١٠/ح١١٥٥٧.

3 «سنن الترمذي»: ٣٣٤٠.

ثَابِتٍ البُنَانِيِّ عَن عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ أَبي لَيْلَى عَن صُهَيْبٍ، قال: «كانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا صَلَّى العَصْرَ هَمَسَ - والْهَمْسُ في قَوْلِ بَعْضِهِمْ تَحرُّكُ شَفَتَيْهِ كأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ. فَقِيلَ لَهُ إنَّكَ يا رسولَ الله إذا صَلَّيْتَ العَصْرَ هَمَسْتَ. قالَ: «**إنَّ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ كانَ أُعْجِبَ بِأُمَّتِهِ فقالَ مَنْ يَقُومُ لِهَؤلاَءِ؟! فأوحَى الله إِلَيْهِ أَنْ خَيِّرْهُمْ بَيْنَ أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وبَيْنَ أَنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فاخْتَارَ النِّقْمَةَ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ المَوْتَ فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفاً**» قالَ: وكان إذَا حَدَّثَ بِهذَا الحَدِيثِ حَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيثِ الآخَرِ قالَ: فذكر القصة (مع اختلاف) وقال في آخره: يَقُولُ الله تبَارَكَ وتعَالَى فِيهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. قَالَ: فَأَمَّا الغُلاَمُ فَإِنَّهُ دُفِنَ، قَالَ فَيُذْكَرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ وَإِصْبَعُهُ عَلَى صدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ» .

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وفي تفسير ابن كثير رحمه الله كلامٌ طويلٌ فيه فوائد، يَرجع إليه مَن أحب، ولولا أنَّ الكتاب مشتهر منشور بين النَّاس لطلبتُ وضعه هنا، ثم إنَّه ليس مُرادي هنا إلاَّ فوائد الحديث التي تنفعُ أهلَ هذا الزمان ونوازلهم وحوادثهم، وأما مسائل السند ومباحثه فلها مواطن أُخرى.

وقد اخترتُ ألفاظَ الإمامِ مسلم، وهي قريبةٌ بل عين ألفاظ الإمام أحمد والطبري رحمهم الله جميعاً، وفي كلٍّ خيرٌ، ولم أشأ التعليق على اختلاف الألفاظ حتى لا أُشغل القارئ بغير ما يُوصله إلى المُراد، إذِ الخلاف بين الألفاظ لا يُؤثر شيئاً في المعنى.

★★★★★

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

تمهيد

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبيِّ الأمين، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:-

فهذا حديثٌ عظيم النفع، فيه من الفوائد للمُهتدين والدُّعاة والمجاهدين، إذ أنَّ حالَ هذا الفتى هو حال أهل الحق في زمان الفِتن والابتلاءات، يُصيبهم ما أصابه وأصاب المُهتدين معه وبه، وإذا كان الأمر كذلك فإني رأيتُ أن أشرحه على معنًى يُبرز هذه المعاني، فينتفع به أهل الإسلام عموماً وشبابه خُصوصاً في سَيرهم إلى الله تعالى، إذ خُلُوَ قلب المُهتدي من هذه المعاني عند وُقوع سُنن الطريق في الهداية والدعوة والجهاد يُردي المرءَ في ظنون الباطل، فيتلقفه الشيطان إغواءً وإفساداً وإضلالاً، والمرء لا يكفيه أن يعلمَ الحق في نفسه بل لا بدَّ من معرفة ظرف هذا الحقِّ وسُننه، وهذا مِن العلم الواجب، إذ سياسة العِلْمِ كالعِلْمِ وُجوباً، وسُنن العِلْمِ مثلها، فالأمور القَدرية لأمرٍ مِن الأُمور إن وقع فيها الجهل عاد أمر هذا الجهل بالإفساد على نفس الأمر، ولذلك كانت قصص الأنبياء في القرآن أكثرها يحكي عما يقع للأنبياء من ظروفٍ وسُنن الطريق، وهذا ما كان يعظ به الرسول ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم في مكة المكرمة كما في حديث

خباب بن الأرت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما سيأتي في شرح الحديث إن شاء الله تعالى[1]، بل إنَّ مِنَ العِلْمِ الواجب أنْ يعلمَ المرء سنن الحياة وأقدارها، كتلازم الألم فيها، وكتعاقب العسر واليسر، وسنن التدافع، وغيرها من السنن التي يجب العلم بها لما علم أنَّ التكوين والأقدار هي من أعظم الأبواب لمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته، ثمَّ لارتباط هذه الأقدار بواجباتٍ شرعية، كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ١ـ ٢].

الأقدار المُلازمة للحقِّ دليلٌ على صِدقه، كما أنَّ الأقدار المُلازمة للباطل دليلٌ على كذبه، ولذلك كان مِن عَقْلِ هِرقل وهو يسأل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ أن سأله عن شرائعه، وعن أحواله وأحوال أصحابه القَدرية، فسأله عن أتباعه: هل همُ الفقراء أم الأنبياء؟ وهل يزيدون أم ينقصون؟ وسأله عنِ القِتال بينه وبين أعدائه، وعن آبائه هل كان فيهم مِن ملك؟ وأمورٌ أُخرى عَلِمَ من خِلالها صفة النبي ﷺ وأنه صادقٌ أمينٌ[2]، وهذه من موازين العلماء في معرفة الرجال والدُّعاة، يُعرفون مِن خِلال أقدارهم وأحوالهم صِدقهم من كذبهم، وهذا بابٌ عظيم النفع، وهو شطرُ معرفةِ الحقِّ في نفسه، ومِن سُوء جهل النَّاس في هذا الزمان أن هربوا مِن الحقِّ مخافةَ أقداره المُلازمة له، بل إنَّ بعضهم جعلَ ما يقع لأهل الحقِّ مِن أحوالٍ سبباً للتنفير منهم وغمز دينهم واتهامهم بالباطل، وليس هذا من عجيبِ الأمر، فإنَّ هجرَ النَّاس للكتاب والسُّنة وسيرة الصالحين على المعنى الصحيح يُؤدي لهذا الشرِّ وأعظم منه، ولا يغرنك الشعارات التي تملأ

---

[1] لقد شرحه الشيخ حفظه الله تعالى، وبارك فيه وفي علمه ـ في رسالة مستقلة بعنوان: «**طيب المقال في حديث الاستعجال**، شرح حديث خباب بن الأرث Z : «**ولكنكم تستعجلون**». فارجع إليها غير مأمور.

[2] انظر: «صحيح البخاري»: ١/٧/ح٧، ٣/١٠٧٥/ح٢٨٧٤، ٤/١٦٥٧/ح٤٤٣٥. و«صحيح مسلم»: ١٢/٨٣/ح٤٥٦٢.

الساحات بوجوب العودة للكتاب والسنَّة، ولا بمثلها التي تدعو لإتباع السلف الصالح، فما هي إلاَّ ألفاظٌ وأسماءٌ لم تكن هذه في يومٍ من الأيام في تاريخ البشرية نافعة للتغيِّير إلاَّ بمقدار كونها معاني لحقائق في القلوب والنفوس تهدي المرءَ للعَمَلِ والفِعْلِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

هُرُوبَ الجُبناء والمُترفين مِن الحقِّ مخافةَ أقداره أكثر مِن هُرُوبِهم منه بسببٍ علميٍّ، أي لمعانيه ومعالمه ومعارفه، ولذلك تميَّزَ الجيل المُهتدي الأول بالتربية على هذه الأقدار، فكانوا صناعتها مناصفةً مع صناعة المعاني العلمية التي آمنوا بها، وأما أهل هذا الزمان فظنوا أنَّ المعاني والمعارف الحق كافية لتحقيق الإمامة والتغيِّير من غير أن يعيشوا أقدارَ هذه المعاني والمعارف، ولذلك آل بهمُ الأمر إلى تخليهم عن حقائق هذه المعاني، وعن سياستها الصحيحة، فذهبت أهواؤهم بهم إلى ابتداع دين «مشيأ»، أي مجموع على وجهٍ مختلفٍ عن وجه الدين الصحيح، نعم، أفراده منه، ولكن وضع على وجهٍ آخرٍ غير ما أراده الله تعالى، فالعرب تقول لما تركب على غير صورته أنه شيأ، وهؤلاء لما أعياهم وضع الدين على الوجه الذي تلقاه الصحابة راحوا يقطعونه ويُركبونه على وجهٍ يتلاءم مع أهوائهم، ومِثالهم مثال المرء الذي أعياه أن يُدخل شيئاً من باب بيته فقطعه قِطعاً يسيرة ثم جمعه جمعاً جديداً، فالأجزاء هي الأجزاء ولكن ما كان رأساً عاد إلى جِهة الأرض، وما كان قلباً صار محسناً وثانوياً، فأين هو التوحيد اليوم من أعمال الأحزاب؟ وأين هي مقتضياته؟ وأين هي الدار الآخرة؟

كل هذه صارت تبعاً لقضايا أُخرى هي تابعة فجعلوها رأساً كإصلاح الاقتصاد ومَرافق الحياة ومُراقبة الولاة والإدارات التي سموها سياسة، وهي أمُورٌ مِن الدين لكنَّ الفساد إنما جاء في تغيِّير صورة الدين عند هؤلاء، والدافع هو ثِقَلُ تكاليف الدين الحق، فقطعوه حتى ذهبت روحه، ثم ركبوه على وجه يُلاءم

الأهواء، فصار الدين مشياً، فاختلفت أقداره وفاعِليته في الأرض، ولو أبصرَ هؤلاء معنى الدين الحق وصورته السَّنية التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه لَوقعتْ لهم أقدار الدين مِن المحن، ولجَرتْ بهم هذه المحن على وجهٍ تُؤدي لُزُوماً قَدرياً للوراثة والتمكين.

البدع العصرية اليوم لها صورٌ ووجوهٌ متعددةٌ، أعمقها وأشدها هو «التشييْ» فكل أمرٍ يحقق البلاء والمحنة أُزيل من موقعه إلى موقعٍ متأخرٍ حتى يفقد تأثيره، والثانية رفع الدين من بيئته وهي بيئة الامتحان والجهاد، والشيء لا يمكن أن يحي إلاَّ في بيئته القَدرية التي تتلاءم معه، فلا عجبَ بعد ذلك أن يُصبح الإسلام خادماً، يعيش في ظلال الجاهلية كالقومية والوطنية، إذ تنزع منه ما يحقق للجاهلية بقاءها وقوتها، وتذهب قوته في أن يكون هو الحاكم ومظلة الوجود للآخرين.

إنْ لم يُدركِ الفقيه والعالِم هاتين البدعتين ويعمل حياته في جِهادهما فهو كواضع الذهب في نهر النجاسة، فمهمَا صبَّ على الذهب من ماءٍ نقيٍّ فلن يحقق الطهارة له أبداً، والواقع يشهد لذلك فإنَّ فاعليةَ المسلم في الحياة اليوم تكاد تنعدم، فوجود الصالح في نفسه من المسلمين كثير، ولكن «المُصلحين» قليل، وكلما تساءل النَّاس عن سبب غِياب أثر الدُّعاة وهُمْ كثيرٌ، وعن سببِ التراجع في فاعلية المُسلمين في العالم فإنه يعلم أنَّ المشكلة في هاتين المسألتين.

حديث الفتى المُؤمن في هذا الباب يحقق لقارئه المعاني القَدرية التي تُصاحب المُهتدي، ويُعلمه الواجبات الشرعية التي تحقق التجاوز والانتصار على هذه الأقدار، ونفع هذا الحديث في زماننا من وُجُوهٍ عِدة أهمها أنَّ الحديث يتكلم عن فترة التأسيس، وهي فترة الابتلاء، وفترة الشهادة كما سيأتي شرحها وبيان نماذجها في حياة البشرية وحياة الصَّحابة رضوان الله عليهم، وزماننا لا شك أنَّ فيه هذا المعنى، إذ أنَّ سِمَّة الأوائل أن يبذلوا، ويموتوا ليحيى مَن بعدهم، فمن

صحابه الضعف في ثقته على الآخرة ولقاء الله والاحتساب وطلب الأجر يوم القيامة فإنه لن يصمد في هذه المرحلة، بل سيهرب منها في انتظار غد في الأمن والطعام والغنائم، ولا شك أنه سيكون رأساً في هذا الباب، مع أنه في هذا الغد ضريبته من الابتلاء ليس في هذه الورقات محلاً لشرحها.

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُبارك في هذه الكلمات، وينفع بها كاتبها وقارئها، وأن يجعلها في ميزان عملي الصالح يوم القيامة.

آمين

★★★★★

«كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ»

السلطة السياسية تحتاج دَوْماً إلى شرعيةٍ تحققُ لها القوة والبقاء، فالمُلك والسلطان والحاكم لا يملك قوةً ذاتيةً تحقق له الغِنى في نفسه والقِوامة على الآخرين، فالذي يملكُ ذلك أي الغِنى الذاتي والقِوامة على الآخرين بنفسه هو الله تعالى، وأما غيره فإنَّ غِناه في غيره، ولتحقق سلطانه فإنه يحتاج إلى شرعيةٍ مقبولةٍ من قِبَلِ المرؤُوسين، ولذلك فالقرآن عندما تحدث عن صورة الطاغوت الحاكم كما هي في شخص فرعون، فإنه نقلَ الحديث نفسه مرةً عن الملأ، ومرةً أُخرى عن فرعون نفسه، لأنَّ فرعون شخصٌ، وليس إلهاً، وهو يجري إرادته في شَعبه مِن خِلال قوةٍ ما، هي مصدر شرعيته، ففي سورة «الأعراف» قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٣ ـ ١١٠].

فهذا خطابُ الملأ الذي يحيط بفرعون، وهو قولهم حين جاء موسى عليه السلام له، وهو نفس خطاب فرعون كما في سورة «الشعراء»: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا

﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الشعراء: ٢٣ - ٣٥].

فخطابُ الملأ هو عينه خطاب فرعون، وفرعون يعلمُ أنه لا يملكُ قوة من غير الملأ، فهو بحاجةٍ لدعمهم ولذلك قال لهم كما في سورة «غافر»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦]، فها هو مع تألُّهه عليهم يطلبُ منهم أن يعينوه بل ويأذنوا له أن يقتل موسى، لِما يعلم أنه لا يملك غنى في نفسه دونهم، بل هو بهم، كما أنهم هم به، بل إنه لما أرسل طالباً المَدد والجنود لقتل موسى عليه السلام وبني إسرائيل الهاربين من مصر احتاج تبرير هذا الأمر لهم فقال الله تعالى عنهم في سورة «الشعراء»: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦]، وبهذا أشركَ قومه في الحذر في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، فأدخلهم معه في الخَطر القادم من موسى عليه السلام ودعوته.

فالحاكم في الحقيقة القرآنية لا يملك قِوى خارقة على شعبه، لكنه كذلك ليس شأناً عادياً كغيره من الأتباع، فهو له خُصوصية الاعتبار مُناصفة مع الملأ والجنود، ولذلك كان من الفقه الشرعي أنَّ الجهاد يكون ضدَّ الأئمة والجنود، بل ضدَّ الأتباع حتى لو كانوا مُستضعفين ينقادون للمُستكبرين في أمرهم ونهيهم.

لقد تعددتِ المواطن في القرآن الكريم التي تتحدث عن رفع الأعذار التي يتخفى خلفها الأتباع والمُستضعفين في انقيادهم لأمر أسيادهم، وأنَّ ما يقولونه إنما هي شُبَهٌ كاذبةٌ لا تملك الحقيقة، والغفلة عن هذه الحقيقة هي التي فرَّقت الكفار في ديار الحرب بين مدنيٍّ وعسكريٍّ، وبين حاكمٍ وشعبٍ، وبين ملأ وأتباعٍ، فهذه خِدعة انطلتْ على جَهلة المسلمين، وشربت قلوبهم خمرتها.

في سورة «إبراهيم» قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

وفي سورة «الأعراف» قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨ـ ٣٩].

وفي سورة «البقرة» قال جلَّ في عُلاه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ـ ١٦٧].

وقال جلَّ في عُلاه في سورة «الأحزاب»: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وفي سورة «غافر» قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧ ـ٤٨].

وفي سورة «سبأ» قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ

لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

فهذه آياتٌ محكمةٌ بيِّنَةٌ أن في أعذار المُستشفعين والأتباع في لحوقهم بالأئمة منهم والمُستكبرين فيهم غير مقبولة، بل هم على السواء من العذاب إلاَّ ما جاء في سورة «النحل» أنَّ المُفسدين لهم عذابٌ زائدٌ على أتباعهم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

فهذه قضيةٌ مهمةٌ في كتاب الله وهي أنَّ الأتباع في دخولهم في طوائف المُستكبرين، وتكثيرهم سوادهم، والتحاقهم بهم على معنىً مِن المعاني ووجهٍ من الوُجوه يجعل لهم حُكمهم في الدنيا والآخرة، ولذلك فإنَّ الخطاب للحاكم والسلطان في إقامة الحجة الرِسالية كافية في دين الله لقتال الطوائف واستحلال دمها ومالها، وهذا واقع الفقه الربَّاني المُحكم، إذ كان النبي ﷺ يُرسل لعظماء الأُمم والشعوب الرسائل، ويكون في هذا الكفاية لاستحلالهم قِتالهم وغنيمة أموال الحُكام والمحكومين، هذا ما فعله رسول الله ﷺ في جزيرة العرب وفي رسائله إلى هِرقل وكسرى والمُقوقس، ولم يكن مِن الواجب أن تبلغ الحجة والدعوة كل واحدٍ من هذه الطوائف المُمكَّنة والمُمتنعة حتى يستحل الصحابة قِتالها، ذلك بأنَّ أيَّ أُمَّةٍ مِن الأُمم رضِيَتْ حاكماً لها على وجهٍ من وُجوه الإمامة والسلطان فهي معه، وهي به، وهو كذلك بها سواء بسواء، فهو لهم جُنَّة يحميهم، وهم له جُنَّة يُقاتل بهم ويحكم بهم، فتمضي أوامرهم بأُمَّتِه التي رضيته للإمامة.

وأما دعوى المُخالفة له مِن قِبَلِ بعض الطوائف، فهذا وَهْمٌ بحسب ما يُسمونه النظام الديمقراطي المُعاصر، لأنَّ هذا النظام يقوم على وُجود أغلبيةٍ حاكمةٍ وأقليةٍ

مُعارضةٍ، وكِلاهما يمثل السلطة، أي سلطة الفِعْلِ وسلطة المُراقبة والمُحاسبة، وكِلاهما جزءٌ مِن النظام، فالأمر الصادر من سلطة الحُكم الأغلبية يملك قوة الفِعْلِ والأداء من سُلطان النظام المُكون من الحاكمين والمُعارضين سواء بسواء، بل يجب على الأقلية قبول ما يصدر من الأغلبية على وجهٍ قانونيٍّ كما يجب احترامه والعمل به والخضوع له، وإن كان لهم العمل من خلال النظام لتغيِّير النِسب بين الأقلية والأكثرية.

فالطوائف الحاكمة هي سلطة بقوتها هي، وسلطة من خلال الأتباع، وسلطة من خلال المُعارضين المُنتظمين في داخل النظام الذي يقسم نفسه إلى حُكامٍ ومُعارضةٍ.

هذه قواعد قُرآنية وحياتية تُبَيِّن أنَّ الجهاد ليس ضدَّ رجلٍ يُسمى حاكماً يعيش في فضاءٍ مُنفرداً، فتُوجه الأسلحة ضدَّه، أو ضدَّ وُزرائه ومُعاونيه فقط، أو ضدَّ جيشه المُقاتلين فقط، بلِ الجهاد ضدَّ هؤلاء كُلِّهم وضدَّ الردءِ فيهم من الأتباع الذين دخلوا في ذلك كلِّه مِن القبول أو السكوت، وحُكم الجميع سواء.

هذا لا يمنع إنْ قدر على آحادٍ منهم، فصار مقدوراً عليه، وعُلِمَ منه إنكاره لدين قومه ومذاهبهم وسياستهم أن يُعامل بالحُسنى المُلائمة له، وفي السيرة ما يشهد لهذا، وليس هنا محل بحث هذا الخصوص، بل له مجالٌ آخرٌ، أما دعوى تجنيب ما يُقال لهم بالمدنيِّين أي الأتباع من غير المُقاتلين بحجة استضعافهم فهذا لا وُجودَ له إلاَّ في أذهان الجهلة من أُمَّةِ محمد ﷺ، لأنَّ هؤلاء المُستضعفين - زعموا - هم مصدر قوة المُستكبرين، فهم أُمتهم، وهم شعوبهم، ومنهم تستمد الجيوش رجالها وقوتها، وقوة عَطائهم في الصناعة والزراعة والكسب هي مصدر قوة الحُكام والمُستكبرين.

من هنا يُعلم أنَّ ما يتصوره البعض من أنَّ المُشكلة هي شخصُ الحاكم في بلدٍ من البلاد هو وهْمٌ وخطأٌ، فلا يُوجد حاكم إلاَّ بطائفة، وهي مَن يقاتِل ويقاتل

الجهاد في الإسلام ضدَّ هذه الطوائف، وكل محاولة لتبرئة هذه الطوائف من إجرام الحكام، وعدم قصد قِتالهم إنما مآلها إلى إبطال الجهاد في سبيل الله تعالى، ليُصبح الجهاد حالة ذهنية لا يمكن تحقيقها واقعاً.

هذا لا يعني أنَّ الحاكم أو طائفته ليس لهم خُصوصية النَّظر والتأثير، فإنَّ تصور الحاكم على معنى آحاد الرعية جهلٌ لا يقوله عاقلٌ، لأنَّ وصول امرئ إلى حالةٍ مِن الفَرادة بالسلطة، وانقياد الجموع له لا بدَّ أن يكون فيه معنى خاص يختلف عن الآحاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ [التوبة: ١٢]، فهؤلاء أشبه بالمَفاصل التي تُدِيرُ أطرافَ الجسد، ومن دونها فإنَّ الجسدَ مجرد أطراف مُتناثرة لا تضع قوة جامعة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**الإِمَامُ جُنَّةٌ**»[1] أي وِقاية وسِتر تحتمي الأُمَّة به من أعدائها، فالإمام يُقاتل بالأُمَّة، وهي تُقاتل به، ولذلك فهُمْ على معنىً واحدٍ في دين الله تعالى، وواقع البشر يشهدُ لذلك.

«كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ»

وجود الساحر ضرورةٌ من ضروريات المُلك، وواجبٌ من واجباته لاستقراره ونَفاذ أحكامه، فالساحر سلطة تزيِّينٍ وخِداعٍ ورَهْبَةٍ، ولتحصيل هذه المقاصد فلا بدَّ من وُجود اعتقادٍ للأُمَّة بهذا الساحر، فمِن غير إيمانٍ رابطٍ بين الساحر وبين الشعوب لا يحصل التأثير اللازم، ولذلك فالساحر هو إفراز عقائدي مِن قِبل الأمم، يرشح منها ثم يعود عليها بالسلطة والتأثير، شأنه كشأن الأصنام، يصنعه المرء ثم يعبده، وهو مِن صُنع يديه، ولهذا فالساحر وإن كان اسماً على حقيقةٍ كونيةٍ وهي السحر، إلا أنه حالة مُضطردة تكون في كلِّ مَن قام بدوره في تزيِّين وخِداع وإرهابِ الشعوب للخُضوع لحُكامها وقبولها تألُّههم وسُلطانهم، فمن

[1] «البخاري»: ٣/١٠٨٠/ح٢٨٩٠. «مسلم»: ٤/١١٣/ح٨٨٥، ١٢/١٨١/ح٤٧٢٨.

كان للسلطان كذلك على أي وجهٍ مِن وجُوه هذه الأفعال كان «ساحراً»، يتخذه المَلك لخاصة نفسه.

فالسحر في قومٍ مِن الأقوام اعتقادٌ وسلطانٌ، يملكه أُنَّاس لهم خوارق يستطيعون السيطرة فيها على حياة الآخرين وممتلكاتهم، وهو عالمٌ مليءٌ بالأكاذيب والقليل من الحقائق، وكثيرٌ مِن السحرة تصنعهم الشعوب والأُمم بأوهامها وخَيالاتها، ثم يخضعون لها، فحرص ملوك هذه الشعوب التي تعتقد هذه الاعتقادات على امتلاك هؤلاء «المُرهبين» والنافذين يُعادل امتلاكهم للجنود والمال والسلاح.

حين تتعلَّقُ قلوب الأُمم بأمرٍ مِن الأُمور، فتنقادُ له على معنًى من معاني الخُضوع، مِن رهبةٍ آسِرةٍ أو رغبةٍ طاغيةٍ فإنَّ السلطان يُسارع لاجتذاب هذه القِوى إلى صفه، وقد تتعدد هذه القِوى، وفي البيئة الإسلامية المريضة فإنَّ التعلُّقَ يكون بالشيخ والمُفتي والواعظ، وهو تعلُّقٌ مرضيٌّ على وجه التقليد وإسباغ بعض المعاني التي تسبغها البيئات المُشركة على السحرة، فيتحول هؤلاء إلى فِعْلِ السحرة في تلك البيئات، إذ يُخْضِعُونَ المسلمين بسلطان الخطاب الشرعي المُزور لأهل الطغيان.

كان الأمر في زمن وعيٍّ العلماء وإدراكهم لمعنى وظائفهم في الحياة المسلمة أن ابتعدوا تماماً عنِ السلطان، مع كون السلطان في زمانهم سلطاناً مسلماً، إلاَّ أنهم يُدركون أنَّ استقلال الحالة العلمية وبراءتها من شوائب السلطان والمُلك هو ما يحفظ صورة النموذج الإسلامي الذي تندفع الأُمَّة نحوه، وتتمثل به، فهُمْ في استقلالهم مِعياراً للحقِّ المائل، كما أنَّ سلفهم مِن الصحابة ومن اقتفى أثرهم مِعياراً للحقِّ المُتخيَّل، وهذان عُنصران ضروريان لحياة الإسلام في الأُمم والشعوب، أي لا بدَّ مِن وُجُودِ مِثالٍ حاضرٍ يمثله العلماء ومثالٍ مُتَخَيَّلٍ يمثله سلف هؤلاء العلماء، وهم من خلال سلطة العلم وسلطة المثال ـ أي الفعل من